



## مشكلة الشر في أدب الكوني.

### قراءة في رواية نزييف الحجر.

مصطفى مفتاح الجندي\*

#### الملخص:

يتوخى البحث الكشف عن جانب من رؤية العالم لدى الروائي الليبي إبراهيم الكوني، تلك الرؤية التي أملت عليه أن يصور الإنسان، في رواية نزييف الحجر، على هذا النحو أو ذاك. وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية أفاد البحث من أطروحات النقد الجديد التي ترى أن نصوص الكاتب، أي كاتب، يفسر بعضها بعضاً، فما غمض في هذا النص يجد تفسيره في نص آخر للمؤلف نفسه. وقد كانت مقارنة نزييف الحجر وفق محورين اثنين: الأول قبايل الشر القادم من الشمال، والثاني أسوف البدوي المعتزل. لقد بين البحث أن الروائي ينطلق من رؤية صوفية؛ جعلته يرى الاستقرار في المدن لعنة تقتل، في الإنسان الروح؛ لذلك فقبايل، رمز الشر في الرواية، كان هو الآخر ضحية هذه اللعنة. في الجانب المقابل هناك أسوف، البدوي الطيب رمز الخير في الرواية، الذي استحق أن يكون قربان الخلاص، خلاص الأرض من اللعنة.

#### الكلمات المفتاح:

الشر، الخير، قبايل، أسوف، الصحراء.

\* قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية - كلية الآداب - الجامعة الأزهرية الإسلامية. m.aljoundi@asmarya.edu.ly

## مقدمة البحث:

تطرح رواية نزيف الحجر مشكلة الشر في هذا العالم، من خلال تصويرها للآثار المدمرة لأفعال الشرير، وهي إذ تفعل ذلك تحاول تلمس الأسباب الكامنة وراء فعل الشر، أي تلك التي تجعل من الشرير شريراً، بمعنى آخر هل خلق الشرير شريراً أم أن البيئة هي التي جعلته كذلك؟ هكذا تتحدد مهمة هذه الدراسة: الكشف عن جانب من رؤية العالم التي أملت على الروائي أن يصور الإنسان على هذا النحو أو ذاك، وهي مهمة تتطلب قراءة الرواية بكل الحواس. وهذه الدراسة إذ تطمح إلى هذه الغاية تبيح لنفسها الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة دون التقيد الحرفي بأي منها؛ ذلك أن التطبيق الحرفي لهذه المناهج قد أحال الدراسات الأدبية إلى ما يشبه الرموز الهندسية، والجداول الرياضية، " ولقد زاد من عتمة النقد الحداثي وطلسمته وغموضه تلك الجداول الإحصائية، والرسوم البيانية، والإحداثيات، والأسهم، والإشارات التي لا تقدم شيئاً ذا بال، مما جعل هذا النقد يبدو - في كثير من الأحيان - أشبه بالغاز وأحاج وكلمات متقاطعة اشتكى من صعوبتها الناقد المختص وغير المختص"1.

إشكالية البحث: ينطلق البحث من التساؤل عن الكيفية التي صورت بها نزيف الحجر الشرير، وهو تساؤل يتفرع عنه سؤال آخر مرتبط به وهو لماذا صورته على هذا النحو؟ للإجابة عن هذين السؤالين ستتم مقارنة الرواية وفق الخطة التالية:

التمهيد وسيخصص للحديث عن الدراسات السابقة ومناقشة بعضها، لبيان ما تختص به هذه الدراسة، وتحديد ما يشرعن وجودها.

المبحث الأول: قابيل الشر القادم من الشمال، ويجوي ثلاثة مطالب:

1 سمات قابيل في نزيف الحجر.

2 الرعاية الأمريكية.

3 لعنة الاستقرار.

المبحث الثاني أسوف الراعي المعتزل النشأة والسمات وفيه ثلاثة مطالب:

1 الرعاية الأبوية

1 وليد قصاب مناهج النقد الأدبي الحديث، رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، ط 2 2009 ص 156



## 2 سمات أسوف في نزيف الحجر

### 3 ثنائية الخير والشر أو بين أسوف وقابيل

هناك شخصيات أخرى سترد الإشارة إليها دون أن تعطى حيزا خاصا، لأنها شخصيات ثانوية، أما نتائج البحث فسيكون مكانها الخاتمة.

### التمهيد : الدراسات السابقة

تعد رواية نزيف الحجر من الروايات التي يمكن أن تسمى الرواية الأليجورية أو الرواية الرمزية، وبعضهم يسميها رواية الواقعية السحرية، وقد نشرت أول مرة سنة 1990، وقد أشار الكوني في نهايتها أنه انتهى من كتابتها سنة 1989، وقد كتب عنها الكثير فيما يلي بعض من هذه الدراسات:

1-الدراسة الأولى: دراسة الناقد الفرنسي لوك-ويلي دوهوفيلس، وعنوانها "مكان اليوتوبيا في أعمال إبراهيم الكوني"1 وقد تناول فيها ثلاثة من أعمال الكوني هي الخسوف، ونزيف الحجر، والمجوس، يهمننا من هذه الدراسة الفصل المتعلق برواية نزيف الحجر وهو المعنون ب"جبل الحكيم" وفيه يقارن دوهوفيلس بين رواية نزيف الحجر والرواية الفلسفية حي بن يقظان للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل2، وهو يقارن تحديدا بين قابيل في نزيف الحجر وبين حي بن يقظان؛ ذلك أن السيد دوهوفيلس ينطلق من فكرة مؤداها أن أعمال الكوني الثلاثة، موضوع دراسته، تخترقها جميعها ثنائية ضدية أطلق عليها (العكس والانعكاس) بمعنى أن روايات الكوني تعكس أعمالا جاءت من ثقافات عدة لكنها تقلبها أي تأتي بضدها؛ لذلك فقابيل في نزيف الحجر هو النقيض لحي بن يقظان في رواية ابن طفيل. وقد تنبه دوهوفيلس إلى أن قابيل في نزيف الحجر يمثل الحضارة الحديثة بكل ما فيها من همجية ودمار، غير أنه للأسف لم يطور هذه الملاحظة التي كانت ستقوده حتما إلى الكشف عن رؤية العالم التي تحكم تصورات إبراهيم الكوني. ليس الهدف من هذا النقد التقليل من قيمة هذه الدراسة وبخاصة إذا علمنا أنها أُنجزت في وقت لم يكن فيه الكوني معروفا في العالم العربي.3

1 ينظر بطرس حلاق وآخرون "محررون" شعرية المكان في الأدب العربي الحديث، ترجمة نهي أبو سديرة، وعماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط 1 2014 ص 33.

2 هو أبوبكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسي، ولد سنة 500 هجرية، وتوفي سنة 581، بمراكش ودفن بها. ينظر حي بن يقظان، قدم له وحققه فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة ط 5 1992 ص 87/88.

3 البحث قدم في ندوة عن جماليات المكان في الأدب العربي، أقيمت بباريس وكان الكوني حاضرا فيها، وقد انعقدت الندوة سنة 1997 ينظر شعرية المكان، مرجع سبق ذكره، المقدمة.

## 2- الدراسة الثانية: دراسة الناقد العراقي سعيد الغانمي وعنوانها: " غبطة البدايات"1 ينطلق الغانمي

من سؤال مضمّر مؤداه ما الذي يجمع بين الشخصيات الأربعة الرئيسية في الرواية؟ و المقصود بالشخصيات الأربعة:

أسوف، وقايل، والأمريكي جون باركر، والعجوز الإيطالي. قاده هذا السؤال إلى البحث عن قاسم مشترك يجمع هذه الشخصيات فوجده في كونها جميعها تحمل "بالعودة إلى البدايات الأولى زمن الآباء والأجداد القدماء"2 وإن اختلفت كل شخصية عن الأخرى في الوسيلة المتبعة لتحقيق هذا الحلم. لقد قابل الغانمي بين هذه الشخصيات الأربعة وبين أربعة أنماط ثقافية مختلفة، فجعل كل شخصية تقابل نمطا معيناً:

أسوف ويقابله الساحر.

قايل ويقابله العصابي.

جون باركر ويقابله الصوفي.

العجوز الإيطالي ويقابله المؤرخ.

وبالرغم من الحدية والعمق اللذين عرف بهما السيد الغانمي في كتاباته، فثمة بعض المآخذ على بحثه منها : أنه قابل بين أسوف والساحر وهي، في تصوري، مقابلة تعوزها الدقة، ولو قابل بينه وبين الصوفي لكان أقرب إلى الصواب، في مقابل ذلك قابل بين الأمريكي جون باركر وبين الصوفي، وهي مقابلة لا تصح إلا إذا كان القصد منها السخرية. أما قوله "تلتقي أربع شخصيات تمثل أربعة أنماط نفسية وثقافية مختلفة... عند صخرة متخندوش التاريخية" فلا ينبغي أن يفهم منه أن هؤلاء الأربعة قد التقوا فعلاً عند الصخرة، فالمراد أنهم زاروها، كل لأسبابه الخاصة، أو أنها الهدف من عملهم في الصحراء؛ فالمؤرخ الإيطالي لم يلتق قايل قط، السارد هو الذي جعل أسوف، عندما التقى بقايل، يعود إلى لحظة لقائه بالعجوز الإيطالي، عن طريق الذكرى، كأنما يقارن بين اللقاءين: لقاءه بقايل، ولقائه بالإيطالي. أما جون باركر فلم يأت إلى الصخرة مطلقاً، غير أن الغانمي يرى أن نيته كانت الوصول إليها. بقي أن أشير إلى أن الباحث الكريم لم يشر إلى رمزية قايل في هذه الرواية وإن ألمح إلى تيمة الإخوة الأعداء، عندما قارن بين قايل وبين الحجاج بن يوسف في قصة رضاعة الدم،

1 سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، ط 1 2000 ص 95 وما بعدها.

2 نفسه، ص 95.



وهي مقارنة أشار إليها قبله الباحث الروسي ديمتري ميكولسكي، في دراسته: "يا قابيل أين أخوك هايل" المنشورة مع الرواية في طبعها الأولى، وهي دراسة لم يشر إليها الغانمي ولعل عذره أنه قد رجع إلى الطبعة الثالثة ولم يرجع إلى الطبعة الأولى، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لم يكتف الغانمي بالإشارة إلى رضاعة الدم فقط، بل أشار إلى قتل الحجاج لسعيد بن جبير، وهو عنده مشابه لقتل قابيل لأسوف<sup>1</sup>. أقول هذا وأنا على يقين أن هذه الدراسة، التي أقدمها الآن، ما كان لها أن تكون لولا اتكاؤها على ما سبقها من دراسات.

### المبحث الأول : قابيل الشر القادم من الشمال:

قابيل اسم ورد في التوراة بلفظ قايين، وفي القرآن بلفظ قابيل، أما في الكتابات الإسلامية فقد ورد بالصيغتين، المسعودي تحديداً، استعمل صيغة قايين<sup>2</sup>، في حين استعملت أغلب الدراسات الإسلامية الصيغة القرآنية قابيل. و"قايين اسم سامي قديم معناه الحداد"<sup>3</sup> وقد احتفظت العربية بصيغة القين بمعنى الحداد، وهي قريبة جدا من اسم قايين، فقد جاء في لسان العرب أن القين "الحداد الذي يعمل بالحديد وبالكير"<sup>4</sup> وقد جاء بهذا المعنى في قصيدة لجرير يهجو الفرزدق:<sup>5</sup>

قال الفرزدق رقي أكيارنا<sup>6</sup> قالت وكيف ترفع الأكيار  
رفع متاعك إن جدي خالد والقين جدك لم تلدك نزار

وقصة قابيل مع أخيه هايل قد وردت في القرآن الكريم غير أن القرآن أجمل ولم يفصل؛ ولذلك فالحديث هنا عن أسطورة قابيل بمعنى قابيل كما وردت قصته في الأساطير القديمة وليس كما وردت في الكتب الدينية. توظيف شخصية قابيل في الأدب: من الحق أن رمز قابيل قد وظف في الآداب بصور مختلفة؛ فهو عند الرومانسيين يمثل الإنسان "الساحط المتمرد الضائق ذرعا بما لا يعرف له كنها من مسائل الخير والشر"<sup>7</sup> نجد هذا المعنى، على سبيل المثال، عند بيرون في مسرحيته قابيل، وقد تأثر به الشعاعان الفرنسيان لوكت دي لايل،

1 نفسه ص 121

2 ينظر المسعودي، مروج الذهب، دار الأندلس، بيروت، ط 2 1973 ج 2 ص 45

3 علي البطل، شبح قايين بين ايديت سيتول وبدر شاكر السياب، دار الأندلس، ط 1 1984 ص 43

4 ابن منظور لسان العرب، دار صادر د ط، ت مادة ق ي ن.

5 محمد إسماعيل الصاوي، شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، ط 1 د ت، ص 202

6 جمع كبير وهو جهاز الحداد

7 محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط 3 1987 ص 316

وبودلير، لقد عبر كلاهما، بواسطة هذا الرمز، "عن حيرة الإنسان، وثورته على ما يراه ظلماً"1 أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد وظف قابيل بحسبانه رمزا للمجتمع الرأسمالي ما بعد الصناعي، كما في قصيدة "شبح قايين" للشاعرة الإنجليزية إيدث سيتول2، وهو توظيف قريب جدا من عمل الكوني في نزييف الحجر3

**المبحث الأول: قابيل الشر القادم من الشمال:**

### 1-1 سمات قابيل في نزييف الحجر:

#### 1-1-1 اللقيط أو الطفل المتروك:

جاء في لسان العرب أن اللقيط "الطفل الذي يوجد مرميا على الطريق لا يعرف أبوه ولا أمه"4. في نزييف الحجر لم يكن قابيل لقيطا بآتم معاني الكلمة؛ لم يكن لقيطا إلا بجزء من معنى الكلمة؛ فقد وجد مرميا على الطريق، لكنه لم يكن مجهول الأبوين كما تشير المعاجم؛ فالسارد يحدثنا أن أباه مات وهو في بطن أمه، وأن أمه ماتت بعد أسبوع من ولادته، السارد، إذا، يعرف هوية والدي قابيل، وإن لم يصرح بهذه الهوية للقارئ.

#### 1-1-2 الطفل المنحوس:

ترينا الرواية النحس يحوم فوق رأس قابيل بشكل واضح وصريح؛ فالسارد يصرح بأن اللعنة "تلاحقه منذ أن كان نطفة في بطن أمه"5؛ ولذلك ونتيجة لهذا النحس مات الأب مقتولا عندما حبلت به أمه6، وماتت الأم الأم بلدغة أفعى بعد أسبوع من ولادته7؛ فتولت رعايته حالته؛ فسقته دم الغزال أخذاً بنصيحة أحد الفقهاء إذ زعم لها أن شرب الدم هو "التعويذة الوحيدة التي تستطيع أن تغسله من النحس وتحمي بقية أهله وأقاربه"8 وأقاربه8 "ولكن الخالة وزوجها ماتا عطشا" في رحلتها تلك، ووجد الطفل وهو يرضع من دم غزالة، فأخذه

1 نفسه ص 317

2 ينظر علي البطل، شبح قايين، مرجع سبق ذكره، المقدمة.

3 تحتاج المقارنة بين الشاعرة والكوني في توظيفهما لشخصية قابيل إلى دراسة مستقلة لمعرفة هل تأثر الكوني بها، وقد قارن الدكتور علي البطل في كتابه المشار إليه آنفا بينها وبين السياب في توظيفهما لهذه الشخصية.

4 ابن منظور، لسان العرب، مرجع سبق ذكره، مادة ل ق ط.

5 نزييف الحجر ص 101

6 نفسه

7 نفسه

8 نفسه



رب القافلة ولم يخطر له أن يكون الملاك الصغير سببا في نكبته<sup>1</sup>، فتوالت المصائب على رأس رب القافلة: بوار تجارته، واستيلاء قطاع الطرق على قطعانه، ونهب قافلته، وأخيرا كاد أن يقتل على يد اللصوص، لقد نجح من اللصوص لكنه فقد ثروته. لم ينتبه رب القافلة إلى أن "الملاك الصغير" هو سبب هذه المصائب حتى رآه " يأكل اللحم الني... وأسنانها تقطر بالدماء"<sup>2</sup> يقرر رب القافلة بعد هذه الحادثة عرض الطفل على السحرة والعرافين، عرضه أولا على أحد السحرة فأكد له أن "من فطم على دم الغزال في الصغر لن يستقيم حتى يشبع من لحم آدم في الكبر"<sup>3</sup>. ثم بعد ذلك عرضه على من يسميه السارد " أشهر العرافين" فقال: "يا قابيل يا ابن آدم لن تشبع من لحم، ولن تروى من دم، حتى تأكل من لحم آدم، وتشرب من دم آدم" مكررا عبارته ثلاثا، غير أنه يقتنع بعد نقاش بأن يعمل له حجابا لتحصينه، ولكن حتى تمائم أشهر العرافين لا تحمي من المكتوب<sup>4</sup> على حد قول السارد، فالحجاب يضيع والطفل يعود إلى سيرته الأولى<sup>5</sup>. هذه، إذا، ثلاث صفات تحدد شخصية قابيل كما رسمتها رواية نذيف الحجر: لقيط، منحوس، قد رضع الدم وهو صغير فلا غرابة أن يجري أنهار الدم وهو كبير.

## 2-1 الرعاية الأمريكية:

غير أن هذه الصفات التي توحى بالدموية والميل لسفك الدماء ما كان لها أن تؤتي ثمارها في جعل قابيل على ما هو عليه من سفك للدماء لو لم تتدخل الرعاية الأمريكية، ممثلة في الدعم الذي قدمه جون باركر لقابيل، لكي يقضي على كل شيء جميل في الصحراء.

وجون باركر، كما يقدمه السارد، أمريكي جاء إلى شمال أفريقيا بعد التحاقه بالبحرية الأمريكية ثم أصبح كابتن بقاعدة "هويلس"، وهو منتدب بمعسكر في غريان يتبع للقاعدة<sup>6</sup>. كان جون باركر شغوبا بدراسة فلسفات الشرق، منذ أن كان طالبا بكلية الاستشراق بجامعة كاليفورنيا؛ ولذلك انتهز فرصة وجوده في ليبيا وتفرغ لدراسة الطرق الصوفية، كأنما أراد الكوني أن يعيد للأذهان الفرضية القائلة بربط الاستشراق بالنوايا الاستعمارية. قرأ باركر التصوف، وهو يجهد حقيقة أن المعاني الحرفية غير مرادة في نصوص الصوفيين؛ ولذلك فقد ارتكب خطأ

1 نفسه

2 نفسه ص 102

3 نفسه

4 نفسه ص 103

5 نفسه

6 نفسه ص 129



كبيرا حين قرأ نصا صوفيا يربط بين لحم الغزال والوصول إلى حضرة قدس الأقداس، فظن أن المعنى الحرفي هو المقصود، فاجتهد في الحصول على لحم الغزال، ومن هذه الطريق وصل إلى قبايل آدم<sup>1</sup>، وبهذه الصلة تغيرت حياة قبايل؛ فقبل أن يتعرف على هذا الأمريكي كان قبايل يصطاد الغزال على الجمال، وبنديقية عثمانية قديمة، فكان صيده شاة غزال أو اثنين على الأكثر<sup>2</sup>. أما بعد لقائه بجون باركر فقد تغير الوضع تماما؛ فقد دربه الأمريكي على قيادة السيارة، وأعطاه سيارة لاندروفر، فكان أثرها كارثيا مدمرا على قطعان الغزلان. كما أمده باركر بنديقية حديثة سفك بواسطتها أنهارا من دم، فأباد قطعان الغزال في الحمادة وما جاورها، ولم يبق من قطعان الغزال إلا أقل القليل، الذي سيأتي عليه الدور بعد أن يحصل قبايل على هيلوكوبتر لتمشيط جبل الحساونة بحثا عن بقايا الغزال<sup>3</sup>. بواسطة الدعم الأمريكي، وقوة التكنولوجيا الأمريكية استطاع قبايل أن يقضي على قطعان الغزال تماما. هكذا يتبين لنا أهمية الرعاية الأمريكية فلولاها ما تمكن قبايل من القضاء على الغزلان، ومن الشيق أن نلاحظ أن علاقة قبايل بجون هي نوع من علاقة السيد بالتابع؛ ولذلك فحين ينتهره لا يغضب ولا يثور، ففي حوار بينهما قال الأمريكي لقبايل:

"ولكنني لا أعرف أيننا يجب الورد أكثر أنا أم ذلك المخلوق الذي يأكل الدود أسنانه ولا يستطيع أن يصبر على اللحم يوما واحدا" فضحك قبايل وكنم غيظه مع أن الدعاية جرحته، على حد قول السارد<sup>4</sup>. وفي حوار آخر قال له " أنت يا قبايل تأكل الغلة وتسب الملة، والصحراء لم تطهرك لأنك لم تعشقها"<sup>5</sup> " لم يبد الغضب على قبايل"<sup>6</sup> اكتفى، فقط، بالابتسام ببلاهة.

### 3-1 لعنة الاستقرار:

لماذا يعود إبراهيم الكوني إلى رمز قبايل؟ يبدو للوهلة الأولى أن الكوني قد وظف رمز قبايل بحسبانه أول قاتل على وجه الأرض وهو لذلك يصلح أن يكون رمزا للشر؛ ولهذا السبب نجد الذين تناولوا نريف الحجر بالنقد والتحليل يشيرون إلى تيمة الإخوة الأعداء. ومن الحق أن هذه التيمة ليست واضحة تماما في الرواية، بمعنى آخر

1 نفسه ص 134

2 نفسه ص 112

3 نفسه ص 136

4 نفسه ص 135

5 نفسه

6 نفسه ص 136





لا تحتل هذه التيمة المرتبة الأولى من اهتمام الروائي ، والمقارنة بين "نزيف الحجر" و"قاييل أين أخوك هايبيل" وهي رواية أخرى أصدرها الكوني سنة 2008، الناظر في الرواية الأخيرة يدرك أن الكوني مهتم بمعالجة تيمة الإخوة الأعداء؛ ففي هذه الرواية يعود الكوني إلى قصة الصراع على السلطة بين أبناء علي باشا القرمانلي، يوسف وإخوته، وكيف قتل يوسف أخاه حسن لكي يتسنى له الجلوس على كرسي العرش. وبالنظر إلى تاريخ صدور هذه الرواية يمكن القول إن الكوني من خلال مساءلته للحقبة القرمانلية إنما يحاول مساءلة حاضر يستعصي على المساءلة؛ فلعل بعضنا يذكر ما كان يتهامس به الليبيون في مراحليهم، سنة 2008، وقت صدور الرواية، من أن صراعاً قد ينشب بين سيف الإسلام وأخيه المعتصم على السلطة في حال موت الزعيم الليبي. الأمر في نزيف الحجر مختلف، ولا بد لفهم هذه الرواية من الاستعانة بكتب الكوني غير الروائية، فالاعتماد على نزيف الحجر وحدها لا يكفي لفهمها، وإن هذه الدراسة لتتنظر إلى جميع نتاج الكوني نظرتها للنص الواحد، فما غمض هنا يجد ما يزيل غموضه في كتاب آخر أو رواية أخرى، لذلك وفهم "نزيف الحجر" نرى لزماً الرجوع إلى كتاب صحرائي الكبرى الصادر في طبعته الأولى سنة 1998، وكذلك كتاب بيان في لغة اللاهوت، وقد صدر في سبعة أجزاء، وأيضا مداخلات الكوني، وحواراته كتلك المنشورة في كتاب صحف إبراهيم. في هذه المصادر يفهمنا الكوني بأنه يؤمن بأن البشرية قد انقسمت، منذ القدم، إلى قسمين: قسم مرتحل، وقسم مستقر، فأما المرتحلون فهم أهل الله، وأما المستقرون فهم الذين باعوا أرواحهم في مقابل شهوات الجسد، ويستدعي الكوني في هذا السياق القديس أوغسطين في كتابه "مدينة الله"، الذي يسميه "ملكوت الرب"، وينقل عنه تقسيمه الخليقة إلى قبيلتين اثنتين: قبيلة "قاييل"، وهي القبيلة الحاملة للمبدأ الأرضي بسبب الاستقرار، وقبيلة شت، التي اعتنقت المبدأ الإلهي بسبب ارتحالها في الأرض<sup>1</sup>، تأسيساً على ما ذكر يؤكد الكوني "أن الاستقرار هو اللعنة التي لا تبيد البدن وحسب، ولكنها تذهب بالإيمان"<sup>2</sup> وفي كتاب بيان في لغة اللاهوت يعيد هذا المعنى بعبارة أخرى إذ يؤكد أن "الانشداد إلى الأرض قدر بئس أدى إلى فقدان الهوية الأصلية، أي الحرية، من ناحية وإلى لعنة الاستقرار الناتجة عن الحلول في الجسد من ناحية أخرى"<sup>3</sup>، قاييل موظف هنا لأنه ممثل للمستقرين؛ ولذلك في الرواية هو قادم من الشمال، والمقصود الشمال الليبي حيث المدن وحيث الاستقرار؛ ولهذا لا عجب أن يضع السارد على لسان مسعود الدباشي، رفيق قاييل

1 إبراهيم الكوني صحف إبراهيم، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط 1 2005 ص 46

2 نفسه

3 إبراهيم الكوني بيان في لغة اللاهوت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 2005 ج 6 ص 12

في الرواية، قوله "كثيرون مثله في الشمال" أي مثل قابيل. قابيل، إذا، في نزيف الحجر، كان ضحية لعنة الاستقرار، هو ومن على شاكلته ممن همهم الوحيد إرضاء شهوات الجسد، أما الروح فلا وجود لها في معجمهم مطلقاً، والجسد، في رؤية إبراهيم الكوني للوجود، يماثل الواحة أو المدينة، في حين تماثل الروح الصحراء، وستكون لنا عودة لهذه النقطة.

### المبحث الثاني: أسوف الراعي المعتزل، النشأة والسماط:

أسوف هو الشخصية الرئيسية الثانية في الرواية، لذا سأحاول تبين أبعاد هذه الشخصية كما رسمتها الرواية، لأختم بموازنة بينها وبين شخصية قابيل.

#### 1-2 الرعاية الأبوية:

عاش أسوف طفولته في فردوس أبويه، يتعلم منهما ما يحتاج إليه في حياته اليومية، لقنه والده سوريقي الفاتحة والإخلاص لأداء صلاته، وحين بلغ العاشرة بدأ في تعليمه الأمور التي يحتاجها كل صحراوي: دربه على ترويض الجمال المتوحشة، حتى تصبح مطيعة، تدرج به بعد ذلك إلى تعلم الصيد، فكان يعلمه التصويب على الأحجار أولاً ثم بعد ذلك انتقل به إلى التطبيق العملي، رحلا معاً إلى مساك ملت، إلى حيث مراتع الغزلان، فكان إذا أفلح في الإصابة واصطاد شاة غزال كافأه على ذلك، وقد أدخل في روع الغلام عدم تجاوز الشاة الواحدة في الرحلة، بمعنى أن الصيد ينبغي أن يكون لدفع غائلة الجوع لا للاستمتاع بالصيد والقتل. لم يكتف والده بأن ينقل إليه ما يعرفه من خبرة عملية ليعيش؛ بل نقل إليه أيضاً ما علق في الذاكرة الجمعية من أساطير وخرافات، كان أسوف يرافق والده في أسفاره ويستمع إلى حكاياته، حكى له كيف "كانت الصحراء الجبلية في حرب مع الصحراء الرملية، وكانت آلة السماء تنزل مع المطر لتفصل" 1 بين المتحاربين، ثم نفذ صبر الإلهة فأنزلت عقابها عليهما معاً "جمدت الجبال في مساك صطفت، وأوقفت تقدم الرمال في مساك ملت" 2 فتحايل الجبل ودخل في روح الودان، وتحايل الرمل ودخل في روح الغزال، من يومها أصبح السهل مسرحاً للغزال، وأصبح الجبل المكان المضل للودان، ومكان كل حيوان أصبح مصيدة للآخر. لقد كان لدور الوالد أثراً خطيراً على نفسية أسوف، سيمتد إلى مماته، فقد دربه على الخوف من الناس، ودأب على إسماعه أن "الإنسان الذي

1 نزيف الحجر ص 31

2 نفسه



يفضل الخير لا بد أن يهرب من الناس حتى لا يلحقه الأذى"1، ولم يذكر أسوف في طفولته أنهم جاؤوا إنسيا قط. وقد كلفه خوفه هذا الكثير، فبعد موت والده اضطر إلى أن يذهب لملاقاتة تجار القوافل، للحصول على القمح والشعير، غير أنه ما استطاع أن يتحدث معهم قط، وفشل في الحصول على مبتغاه، وفي المرة الثانية تم البيع عن طريق المقايضة، فأصبح هذا دأبه يترك على طريق القافلة جديا أو عنزا، وينتظر بعيدا فإذا أعجبت بضاعته تجار القافلة تركوا له القمح والشعير مكانها. علمه أبوه أيضا قداسة الودان، ولهذا السبب كان يتهرب من تعليمه كيفية صيده، ثم علم من أمه أن ذلك كان بسبب نذر نذره على نفسه بعدم صيد الودان؛ لكنه حنث فيه، فعاهد نفسه ألا يعلم نسله صيد الودان قط. والودان نوع من الماعز الجبلي يقول عنه الكوني في هامش الصفحة الثامنة "الودان أو الموفلون أقدم حيوان في الصحراء وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر". ثم أعاد السارد هذا المعنى على لسان جون باركر في حوار مع قايل ومسعود الدباشي، قائلا لهما "هل تعرفان بأن هذا الحيوان انقرض من العالم منذ القرن السابع عشر"2 مردفا أن "آخر شاة أصابها أمير فرنسي عام 1627"3 مؤكدا لهما أنه وجد هذه المعلومة في الموسوعة الموجودة في مكتبة القاعدة. وقد تنبه السيد الغانمي إلى أن الكوني أراد إبراز الأهمية التي يوليها الطوارق للودان4، وهي أهمية سبق أن أشار إليها الباحث الإيطالي هنري لوت في كتابه "لوحات تاسيلي" والكوني نفسه ينقل عنه في مستهل أحد فصول الرواية ما نصه: "ويتشاءم أهالي تاسيلي من صيد الموفلون (الودان) فيتمتم الصياد بالتعاون السحرية ويضع حجرا على رأسه ويتقافز على أربع قبل أن ينطلق في رحلة الصيد"5. والد أسوف كان يعلم، إذا، خطورة صيد الودان فلهذا لم يرد لولده أن يتعلم صيده، بالإضافة إلى ما سبق من قصة النذر، الذي سيكلفه حياته لأنه لم يحترمه.

## 2-2 سمات أسوف في نزيف الحجر:

### 1-2-2 الانتماء للمكان:

1 نفسه

2 نفسه ص 154

3 نفسه

4 ينظر سعيد الغانمي، مرجع سبق ذكره ص 102

5 نزيف الحجر ص 33

أسوف اسم طارقي، معناه بلغة الطوارق الخلاء<sup>1</sup>، وهو مدرك لهذا الانتماء، ومقتنع بأن الذين عاشوا في هذا المكان قديما كانوا أجداده الأول، وأنهم هم من رسم هذه الرسوم. لقد كان في طفولته ينتقل بين هذه الأودية وتلك الشعاب بفرح غامر. وكان وهو يكتشف هذه الأماكن، يطلق عليها أسماء من وحي رسومها؛ فهذا وادي الغزلان، وتلك شعبة الصيادين، وذلك جبل الودان، وذلك سهل الرعاة<sup>2</sup>. غير أن اكتشافه الأكبر كان لوحة الكاهن والودان "الجن الأكبر، العملاق المقنع، المنتصب بجوار ودانه المهيب ميمما صوب القبلة، ينتظر الشروق، مكبرا لصلاة أبدية."<sup>3</sup>

### 2-2-2 العزلة:

كان أسوف يعيش مع أبيه وأمه، فلما مات أبوه عاش مع أمه يرعى شؤونها، ويتدبر أمرها فلما ماتت عاش وحيدا، لم يتزوج، ولم يعرف النساء قط. وهي عزلة ورثها عن أبيه، فقد كان والده يعيش معتزلا في الصحراء، لم يجاور إنسيا مطلقا، بحسب ما يتذكر أسوف، هذا من جهة، ومن جهة ثانية هي عزلة أملتها عليه خشيته من الناس، تلك الخشية التي كان أبوه يرسخها في ذهنه، ويحثه عليها. وقد رأينا كيف عانى وهو يحاول التواصل مع تجار القوافل، غير أنه سيتعود قليلا على الزيارات الإنسية مع بدء مجيء السياح إلى المنطقة، ولا زال يحتفظ بذكرى طيبة لبعض هذه الزيارات، كزيارة العجوز الإيطالي التي عاد إليها أسوف عن طريق الذكرى عندما زاره قابيل كأنما ليقارن بين الاثنين. لكن هذه الزيارات لا تعني أن أسوف قد تخلى عن عزلته، فهي مهما طالت قصيرة. المرة الوحيدة التي أجبر فيها على ترك عزلته والنزول إلى الواحة كانت بسبب الجفاف الذي ضرب المنطقة. ذهب إلى الواحة أملا في الحصول على لقمة عيش لكنه، ولتعاسة حظه، وقع في أيدي جنود الحاكم الإيطالي، فأخذوه إلى معسكرهم تمهيدا لنقله إلى الحبشة، غير أنه نجا منهم بأعجوبة، بعد أن تحول إلى ودان يتقافز غير مبال بالرصاص الذي يطارده. رجع بعد هذه الحادثة إلى صحرائه، وقد ازداد قناعة بمنافع العزلة.

### 2-2-3 الزهد:

لو لم يكن أسوف زاهدا ما عاش في الصحراء؛ فالصحراء بيئة زهدية لا تعد زائرها برفاه العيش، ولا بنعيمه؛ لذلك فليس عجيبا أن يكون أسوف زاهدا، وقد اختار الصحراء مكانا للعيش، ولذلك عندما أراد مسؤول

1 ينظر إبراهيم الكوني، بيان في لغة اللاهوت، مرجع سبق ذكره، ج 6 ص 142

2 نزيف الحجر ص 12

3 نفسه



الآثار منحه مرتبا شهريا رفض، مرجعا إليه الجنيهات التي أعطاها له قائلا: "أنا أحرس الوادي. أنا أحرس كل وديان مساك صطفت بدون فلوس. ماذا أفعل بالفلوس في مساك"، ربما يكون رفضه للمال أملاه مع الزهد الشعور بالانتماء للمكان أيضا. سيذهب أسوف في زهده شوطا أبعد حين يحرم اللحم على نفسه، بعد محاولته صيد الودان، لقد ضرب بتحذيرات والده عرض الحائط، واندفع مغامرا بصيد الودان، فجره الودان إلى الهاوية، وتركه معلقا بين السماء والأرض، حتى إذا يئس من الحياة عاد إليه الودان نفسه، الذي حاول صيده، وانقذه. بعد هذه الحادثة قرر التوقف عن أكل اللحم، أيا كان نوعه، فحدث تحول كبير في حياته "أصبح الودان ينقاد إليه، ويرتع بجواره في قطعان كبير... تجيئه القطعان في المرعى، تختلط بالماعز وتقبل نحوه... في البداية كان يخرس وتنشل أطرافه من الدهشة. ومع الوقت تعود، وأصبح يداعبها، ويحادثها، ويقص عليها الحكايات، ويشكو لها الهموم: قسوة الصحراء، وحشيتها من معشر الإنس فتعزيه بعيونها التي تنطق بألف لغة...". وإذا نظرنا إلى صفات أسوف في نزيف الحجر وجدنا أنها تجسد القيم المثلى التي يرى الكوني أنها تشكل طريق الخلاص، الخلاص من شرور الدنيا. فالخلاص عند الكوني لا يتأتى إلا عن طريق العزلة، والزهد، اللذين يؤديان إلى الميلاد الجديد، والميلاد الجديد مصطلح مستعار من اللاهوت المسيحي، يستعمله الكوني في معنى الولادة الروحية، وهي ولادة تقطع ما قبلها عما بعدها، وهذا ما حدث تماما لأسوف منذ حادثة الهاوية، ومن الشائق أن نلاحظ أن الهاوية مصطلح صوفي يشير إلى "الطبقة السفلى بين طبقات الحساب" كما يقول الكوني في هامش الصفحة 59 بداية الفصل المعنون بالهاوية. فكان أسوف قد عبر الجحيم، فأصبح إنسانا جديدا، كائنا آخر مختلفا؛ ولذا استحق أن يكون قربانا، يسمح قتله بغسل اللعنة "فتتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان"

### 3-2 ثنائية الخير والشر أو بين أسوف وقابيل :

عرفنا من خلال تحليل الشخصيتين في الصفحات السابقة أن أسوف يرمز إلى الإنسان الخير، في حين يرمز قابيل إلى الإنسان الشرير، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل الخير والشر، عند الكوني، فطريان أم مكتسبان؟ للإجابة عن هذا السؤال سنعود لشخصية قابيل أولا، ثم نعرض على شخصية أسوف. لم يصرح الكوني بكون الشر فطريا أو مكتسبا، ولكن بالنظر إلى شخصية قابيل، كما رسمها في نزيف الحجر، يمكن القول إن الشر فطري، والدليل على ذلك أقدمه كما يلي:

لم يرنا الكوني أن للتربية أثرا على قابيل، أيا كان هذا الأثر، بل على العكس من ذلك أرانا الكوني قابيل وهو مساق إلى مصيره قضاء وقدر الأمر الذي يذكر بأبطال الترجيديا اليونانية كأوديب الملك؛ فكون قابيل منحوسا لا ذنب له فيه، وكونه متعطشا للدم لا يدل له في ذلك، كيف وقد سقي الدم وهو صغير لا يعي ما حوله. ليس هناك شيء مكتسب في شخصيه قابيل فلا أسرة، ولا معلم، ولا مرشد كان لهم أي أثر عليه إلا ما رأينا من رعاية باركر وتشجيعه، واللقاء بين قابيل وجون باركر لم يحدث وقابيل صغير من الممكن تشكيل شخصيته وتغييرها بل اللقاء حدث وقابيل كبير ومتعطش للدماء وللقتل كل ما هنالك أن الامريكي منحه الأداة التي ستساعده على تحقيق مبتغاه بشكل أكبر، وأسرع، وأنجع، لقد كان قابيل ضحية، إنه ضحية الاستقرار هكذا هي الرؤية التي أملت على الكوني رسم هذه الشخصية. فلنعد إلى بعض عبارات الكوني في كتبه غير الروائية لنحاول استنطاقها من جديد عل ذلك يسهم في إيضاح الصورة بشكل أكبر. رأينا الكوني في ما سبق وهو يؤكد أن الاستقرار هو الخطيئة الاصلية هو اللعنة التي أذهبت الإيمان سنعيد الآن قراءة ما ذكره ما ذكره الكوني في كتابه بيان في لغة اللاهوت حين أكد أن "الانشداد إلى الأرض قدر بئس أدى الى فقدان الهوية الأصلية أي الحرية من ناحيه وإلى لعنة الاستقرار الناتجة عن الحلول في الجسد من ناحية أخرى"1 فما الذي يعنيه الكوني بقوله "لعنة الاستقرار الناتجة عن الحلول في الجسد"؟ هل يعني أن الروح كانت حرة طليقة في عالم الملكوت ففقدت هذه الحرية بحلولها في الجسد؟ وهو المعنى الذي عبر عنه الشيخ الرئيس ابن سينا في قصيدته العينية التي مطلعها:2

هبطت إليك من المحل الأرفع ورفاء ذات تعزز وتمنع

وهو أمر قد ينسجم مع رؤية إبراهيم الكوني للعالم، والتي هي رؤية صوفية، غير أن قراءة أخرى قد تكون أكثر صوابا وانسجاما، وفق هذه القراءة يكون معنى الجسد الواحة أو المدينة يمكن ذلك؟ نعم، فالكوني في كتابه (صحرائي الكبرى) يماثل بين الجسد والواحة، وبين الروح والصحراء وهما نص كلامه "الواحة جسد العالم، والصحراء روح العالم، المضمون الميتافيزيقي للعالم فأني شط علينا أن نختار وطننا؟ هل نستوطن الجسد لتغرب عن الرب أم نستوطن عند الرب وتغرب عن الجسد؟ أليس جديرا بنا أن نتنصر على أنفسنا...

1 إبراهيم الكوني، بيان في لغة اللاهوت، مرجع سبق ذكره، ص 12

2 عمر فروخ تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، ط 4 1983 ص 421



لنتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب كما يوصينا القديس بولس؟<sup>1</sup> ألا يمكن الآن تأويل عبارة الكوني "لعنة الاستقرار الناتج عن الحلول في الجسد" بالحلول في الواحة التي هي المدينة؛ إذ لا وجود للفظلة المدينة في معجم إبراهيم الكوني، الواحة تحل محلها. قايل، إذا، ضحية لعنة الاستقرار تلك اللعنة التي لا تبيد البدن فقط لكنها تذهب بالإيمان أيضا على حد قول الكوني. الأمر مع أسوف مختلف تماما فقد رأينا والده ينقل معارفه، وخبراته إليه، ويعلمه ليصنع منه انسانا خيرا. ولكن ألا يرى الكوني أن الخليقه قد انقسمت منذ القدم إلى قبيلتين، قبيله قايل وهي القبيلة الحاملة للمبدأ الأرضي بسبب الاستقرار وقبيلة شيت التي اعتنقت المبدأ الإلهي بسبب ارتحالها في الأرض، وهو ينسب هذه العبارة للقديس أوغسطين، كما مر معنا، نعم هذا صحيح ولكن حتى أبناء القبيلة المرتحلة قد ألقوا عصيهم واستقر بهم النوى، وما عادوا يضربون في الأرض كما كان أجدادهم يفعلون، لقد أصابتهم لعنة الاستقرار جميعا، غير أن الخلاص منها، بالنسبة لهم، ممكن وقد حدده الكوني بأمور منها العزلة والزهد، كما رأينا مع أسوف الراعي الطيب. بقي أن أشير إلى أنني قد حاولت الحصول على كتاب مدينة الله للقديس أوغسطين فلم أفلح؛ لذا لا يمكنني أن أعلق على ما نسبه إليه الكوني من أن قبيلة شيت قد اعتنقت المبدأ الإلهي بسبب ارتحالها في الأرض، ولا أن قبيلة قايل تحمل المبدأ الأرضي بسبب الاستقرار، غير أن المهم بالنسبة لهذه الدراسة هو رأي إبراهيم الكوني، ثم إن إبراهيم الكوني لا بد أن يكون أميناً في نقله، ربما يكون قد تأول بعض العبارات فنقل الكلام مؤولا، لكن الأمر المهم هو أن الكوني يعتقد أن قبيلة قايل حاملة للمبدأ الأرضي، وقبيلة شيت حاملة للمبدأ الإلهي أو السماوي.

1 إبراهيم الكوني صحرائي الكبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 1998 ص 132



### خاتمة البحث

هذه جملة من النتائج التي توصل إليها البحث:

- 1-عالج الكوني في هذه الرواية مشكلة الشر في هذا العالم، وهو ينطلق من رؤية صوفية للعالم.
  - 2-وظف الكوني، في هذه الرواية، شخصية قابيل بوصفه رمزا للشر.
  - 3- قابيل نفسه كان ضحية، إنه ضحية لعنة الاستقرار، التي يعتقد الكوني أنها الخطيئة، التي أفقدت الإنسان هويته الأصلية.
  - 4- قابيل رمز الشر هو إلى حد ما صنعة الرعاية الأمريكية، فقد أمدته بالتكنولوجيا الحديثة التي ساعدته على أن يكون شريرا بحق.
  - 5- أسوف الراعي الطيب، المتماهي مع الودان المقدس، استحق-بعزلته، وبزهد- أن يكون قربان الخلاص؛ ولذلك يكون ذبحه من قبل قابيل تحقيقا للنبوءة القديمة، التي تعلن خلاص الأرض، وقدوم الطوفان الذي سيغسل اللعنة ويظهر الأرض، واللعنة لن تكون إلا قابيل الذي قضى على كل شيء جميل.
- إن تأويلي للرواية على النحو الذي فعلت لا يعني مطلقا أنني أتفق مع الروائي فيما ذهب إليه، إنني، دون شك، أختلف معه في بعض ما ذهب إليه، واتفق معه في بعضه الآخر، غير أنني لم أقدم على دراسة هذه الرواية لأحكم على رؤية الكاتب للوجود، أزعم أنني كنت محايدا في قراءتي للرواية، وأمل أن أكون قد وفقت.
- إن هذه الدراسة وهي تضع قاطعة الختام على سطورها لتأمل أن تجد مكانها وسط القراءات الأخرى، التي أنجزت على أدب إبراهيم الكوني، والتي ستنجز في مستقبل الأيام.



### مصادر البحث ومراجعته

إبراهيم الكوني:

- بيان في لغة اللاهوت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 2005
- صحرائي الكبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 1998
- صحف إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 2005
- نزيف الحجر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط 4 1996
- بطرس حلاق وآخرون "محررون" شعرية المكان في الأدب العربي الحديث، ترجمة نهي أبو سديرة، وعماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط 1 2014
- سعيد، الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي ط 1 2000
- ابن طفيل حي بن يقظان، قدم له وحققه فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة ط 5 1992
- علي البطل، شبح قايين بين ايديت سيتول وبدر شاعر السياب، دار الأندلس، ط 1 1984
- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، ط 4 1983
- المسعودي، مروج الذهب، دار الأندلس، بيروت، ط 2 1973
- محمد إسماعيل الصاوي، شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، ط 1 د ت
- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط 3 1987
- ابن منظور لسان العرب، دار صادر د ط، ت مادة ق ي ن.
- وليد قصاب مناهج النقد الأدبي الحديث، رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، ط 2 2009



## The evil's problem in the work of Ibrahim Al-kuni

### Reading in the bleeding of the stone

Mustafa Aljoundi

#### Abstract

The research aims to reveal an aspect of the world vision of the Libyan novelist Ibrahim al-Koni, a vision that dictated him to depict a person, in the narration of The Bleeding of the stone, in this way or that. In order to reach this end, the research benefited from the new criticism theses, which see that the texts of the writer, i.e. a writer, interpret each other, so what is ambiguous in this text finds its interpretation in another text of the same author. The approach to the bleeding of the stone was according to two axes: the first was the evil Cain who came from the north, and the second was the reclusive Bedouin Asouf. The research showed that the novelist proceeds from a mystical vision; It made him see stability in cities as a curse that kills, in man the soul; Therefore, Cain, the symbol of evil in the novel, was also the victim of this curse. On the opposite side, there is Asouf, the good Bedouin, the symbol of goodness in the novel, who deserves to be the offering of salvation, the deliverance of the earth from the curse; His death was the cause of the flood that would cleanse the earth from the curse.

**Keywords:** Evil, good, Cain, Asouf, desert.